حقائق عن الصراع الخفي بين بريطانيا والملك فيصل الأول

• د. محمد مظفر الأدهمي

تعتبر احداث الفترة الواقعة بين تتويج فيصل بن الحسين ملكا على العراق في 23 آب 1921 وبين الذكرى الاولى لتتويجه عام 1922 ، من الفترات التي تمت دراستها وتغطيتها ، فقد دون احداثها المؤرخ العراقي السيد عبدالرزاق الحسني في كتابيه الوزارات العراقية وتاريخ العراق السياسي الحديث ، كما كتب عنها Ireland في كتابه المعروف عن العراق Iraq, A study in Political Development وتناولتها في اطروحتي للماجستير «المجلس التاسيسي العراقي» اضافة الى ما كتبه زملاء في اطروحاتهم للحصول على الماجستير والدكتوراه . يضاف الى هذا كله ما كتبه المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه تاريخ القضية العراقية حيث كان احد القادة الوطنيين الذين اججوا الشعب ضد الانتداب .

ان احداث هذه الفترة وباختصار تتعلق بمطالب القادة السياسيين الوطنيين وعلى راسهم الملك فيصل ، بالغاء الانتداب البريطاني على العراق واحلال معاهدة صداقة مع بريطانيا محله . وعليه فقد رفض الملك فيصل تصديق موافقة مجلس وزرائه برئاسة عبدالرحمن النقيب على المعاهدة لانهالم تلغ الانتداب البريطاني . لقد ادى ذلك الى اصطدامه بالبريطانيين الذين اجبروه اخيرا على التوقيع بعد ان وجه المندوب السامي ضربة قوية الى القوى الوطنية الثائرة ضد المعاهدة الانتدابية .

المهم في الامر ان الصراع الخفي الذي كان دائرا بين فيصل وتشرشل وزير المستعمرات لا زال غير مكشوف بشكل مفصل ودقيق بسبب عدم توفر الوثائق . الا انني عثرت في ملفات وزارتي المستعمرات والخارجية البريطانية على المراسلات الكاملة حول الموضوع والتي تبين الاساليب التي اتبعها الاستعمار البريطاني في احكام السيطرة على العراق، كما انها تقدم ادلة وبراهين جديدة حول صلابة فيصل ووقوفه بوجه البريطانيين رغم كل الاخطار . ولكي يكون الموضوع واضحا ادرج النقاط التالية :ـ

1 ـ لكي لا يكون هناك خلط بين الفترات التاريخية المعاصرة التي مر بها العراق ، قبل العهد الملكي وخلاله ، ولكي لا يبدو عنوان هذا البحث غريبا فاننا يجب اولا ان نحدد مفهوم «الوطنية» وتطوره في العراق على اساس الواقع القومي والقطري . ويمكن تقسيم ذلك الى ثلاث مراحل :ـ

أ ـ الفترة الزمنية الواقعة بين قيام الثورة العربية الاولى بقيادة الشريف حسين عام 1916 وبين اعلان الانتداب البريطاني على العراق عام 1920 . لم يكن هناك مفهوم عام للوطنية في العراق ، فقدكان القادة السياسيون في المدن وبعض رجال الدين ممن لهم علاقة بالقيادة العربية في الجيش العربي في الحجاز وسوريا يعتبرون دخول الانكليز للعراق نصرا للقضية العربية بحكم تحالف الثورة العربية معهم ضد الاتراك . في الوقت نفسه كان هناك الكثيرون ممن يعتقدون بأن التعاون مع الانكليز «المسيحيين» ضد الاتراك «المسلمين» كفر والحاد ، ولهذا دعي واستجاب الكثيرون الى الجهاد ضد الانكليز بالتعاون مع القوات التركية .

لقد تجسدت العلاقة والتعاون بين الحركة السياسية في العراق وبين الثورة العربية في الحجاز ومن ثم في سوريا ايضا ، في المطالب التي ظهرت في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء ومناطق اخرى ، خلال استفتاء عام 1918ـ1919 حين طالبت تلك الحركة بأن يكون احد انجال الشريف حسين ملكا على دولة عربية دستورية في العراق وهذا ما نادى به المؤتمر العراقي في سوريا ايضا عام 1920 . لقد ظهرت هذه المطالب بعد ان وجدت الثورة العربية ان هناك تراجعا وعدم التزام بالوعود التي قدمت من قبل الانكليز لتشكيل الدولة العربية الواحدة وعليه لم تكن المطالبة بدولة عربية في العراق او سوريا (لبنان+ فلسطين+شرقي الاردن + سوريا الحالية) او الحجاز بمعزل عن التطلع القومي في الوحدة بين هذه الاقطار بالنتيجة وتحت قيادة واحدة .

ب ـ اما المرحلة الثانية فهي الفترة الممتدة من اعلان الانتداب البريطاني على العراق عام 1920 وتاسيس الدولة العراقية ومجيء فيصل ملكا وحتى دخول العراق عصبة الامم في نهاية عام 1932 وموت فيصل بعد احد عشر شهرا . خلال هذه المرحلة تبلور مفهوم الوطنية بشكلين ، الاول ظهر عنيفا جدا فتمثل بثورة العشرين بعد ان شعر العراقيون بأن بريطانيا لم تات محررة بل تريد العراق مستعمرة وعليه طالبوا برحيلها بشدة . اما المفهوم الثاني فقد تبلور بعد فشل الثورة حيث اصبح هدف القادة السياسيين وعلى راسهم الملك فيصل الاول

هو الغاء الانتداب البريطاني على العراق ليس عن طريق القوة بل بالاسلوب السياسي المدعم بمساندة الشعب . لقد اعتبروا الانتداب رمزا للاستعمار وتتويجا له وعليه طالبوا بالغائه وابداله بمعاهدة صداقة عادلة بين العراق وبريطانيا كخطوة نحو الاستقلال التام ودخول العراق عصبة الامم . خلالها تقوم بريطانيا على ضوء المعاهدة بتقديم المساعدة الفنية والعسكرية وغيرها الى العراق لبنائه ولتاهيله ليكون دولة مستقلة تتمكن من الدفاع عن نفسها وتطوير القطر . في حين فهمت بريطانيا المعاهدة على انها وسيلة لتنفيذ الانتداب وهي ليست بهذا بديلا عنه كما يريد العراقيون والملك فيصل ، كما وقفت بشدة ضد مبدأ الاستقلال «التام» . ان نقطة الخلاف هذه كانت ، خلال هذه المرحلة ، الحد الفاصل بين الوطنية واللا وطنية . لقد كان مفروضا على الوطنيين ان لايطالبوا برحيل بريطانيا خلال هذه الفترة لان العراق كان بحاجة الى مساعدتهم فحدوده غير ثابتة وولاية الموصل لم يقرر مصيرها حتى عام 1926 في حين لم يكن للعراق جيش مع وجود عجز في الميزانية وديون كان على العراق تأديتها كضرائب حرب ، اضافة الى عدم وجود الكادر الوظيفي الوطني لبناء الدولة فقد كان الفقر والامية والجهل متفشيا بين الناس . ان الامر كان معكوسا فكثيرا ما هددت بريطانيا العراقيين بالرحيل عن العراق وتركهم اذا لم ينفذوا مطاليبها او لم ينصاعوا لاوامرها ، والوثائق متوفرة حول ذلك .

حـ ــ اما المرحلة الثالثة فتنحصر بين دخول العراق عصبة الامم وحتى ثورة 14 تموز 1958 . خلال هذه المرحلة ظهرت الاحزاب السياسية الجماهيرية ذات القاعدة العريضة ، وانتهى دور احزاب «النخبة» فاصبح التأثير للمعارضة الحقيقية في الشارع والتي اختلفت تماما عن معارضة المرحلة الثانية . كما اصبح النظام الملكي ، ممثلا بعبدالاله ونوري السعيد ، عدوا لمصلحة الجماهير ، ممثلا للاهداف الاستعمارية البريطانية ومدافعا عنها بشكل شرس وعلى حساب مصلحة الشعب وقواه الوطنية . وهكذا وبعد ان كان فيصل الاول حليفا للقوى الوطنية اصبح النظام الملكي الآن عدوا لها ، فاصبح انهاء النظام هدفا استراتيجيا ، فتبلور مفهوم الوطنية بشكله الكامل المتميز الواعي والذي دعى الى اسقاط النظام الملكي ورحيل بريطانيا نهائيا عن العراق كخطوة على الطريق لبناء عراق مستقل على طريق الوحدة العربية . لقد وعت القوى الوطنية خلال هذه الفترة الاعيب الاستعمار البريطاني وفهمت ان الثورة هي الطريق الوحيد للتحرير بعد ان اصبح العراق قويا ، مقارنة بما كان عليه خلال المرحلة الثانية . فكان اسلوب المجابهة الشاملة مع النظام ودعامته بريطانيا هو الطريق لتحقيق الاستقلال السياسي فكانت ثورة 14 تموز حصيلة انتفاضات وطنية كبرى اسقطت في النهاية النظام الملكي في العراق .

2 ــ ما يهمني في هذا البحث هو جزء من الفترة الثانية الواقعة بين اعلان الانتداب البريطاني على العراق ودخوله عصبة الامم ، اي الاثني عشر شهرا المحصورة بين 23 آب 1921 و 23 آب 1922 . لقد شهد العراق خلالها انتفاضة واسعة ضد الانتداب وبقيادة الملك فيصل ، كان يقدر لها ان تكون ثورة شاملة لولا اختفاء فيصل عن المسرح نتيجة اجراء عملية جراحية له ما زالت الشكوك تدور حول صحة حاجته اليها . عند دراستنا للظروف الداخلية والخارجية للعراق خلال تلك السنة وما اعقبها وحتى موت فيصل ، نجد ان ما كتبه الباحثون ، وانا واحد منهم ، غير منصف بحق فيصل فقد اعتبرناه رجلا يريد الاحتفاظ بعرشه لشخصه فقط وانه كان يتبع مبدأ الغاية تبرر الواسطة للوصول الى هذا الهدف ، في حين ان الوثائق تثبت ان الملك فيصل كان يريد تاسيس دولة عربية قوية مستقلة في العراق تكون قاعدة للوحدة العربية ولهذا نجد انه اصطدم بأقرب الناس اليه وهو نوري السعيد عندما وجد ان نوري قد بدأ يبتعد عن مبادىء الثورة العربية ليصبح عميلا للانكليز(1) . لقد شخص مستشارو المندوب السامي Doobs اهداف فيصل فاطلقوا عليها «احلام فيصل التوسعية لتاسيس الامبريالية العربية» وكان ذلك عام 1927 عندما اراد فيصل فرض التجنيد الاجباري في العراق(2) .

لقد كانت ظروف فيصل خلال الاثني عشر شهرا والتي يعنى بها هذا البحث ، صعبة جدا ، وسأتطرق الى تلك الظروف من خلال المراسلات التي سأدونها ادناه والتي تتعلق بالانتداب والمعاهدة وموقف كل من الملك فيصل والقوى الوطنية من جهة والمندوب السامي البريطاني بيرسي كوكس ومستشار الملك ووزارة الداخلية (كورتواليس) ووزير المستعمرات تشرشل من جهة اخرى . ان هذه المراسلات توضح ابعاد الموقف في الاشهر الاخيرة من عام 1922 اما ما سبق هذا التاريخ فيمكن مراجعة المصادر التي اشرت اليها في بداية البحث للاطلاع عليها .

الملك فيصل يرفض الانتداب البريطاني

طلب الملك فيصل من المندوب السامي كوكس ان يخبر وزارة المستعمرات بوجهات نظره حول المعاهدة وقد كتب الاخير الى تشرشل بتاريخ 28 تموز 1922 ما يلي :

« لقد طلب مني الملك فيصل عرض وجهات نظره التالية اليكم كما يلي :ــ

انه شخصيا وبصراحة كان ومازال في الاساس معارضا لنظام الانتداب . انه الان يخشى ، فيما اذا وقع وحكومته المعاهدة بدون تحفظ صريح ومسجل ، ان تذهب بريطانيا بالمعاهدة الى عصبة الامم وتقول : (هذا هو الانتداب كما صيغ اصلا ، ولكنه على شكل معاهدة. نقترح ان نستعر بالانتداب على ضوئها ان العراق قد قبل هذا الوضع ونطلب منكم تصديق الوثيقتين) وبذلك سيمنع العراق من تحرير نفسه من الانتداب الى اجل غير محدود . في نظره [أي الملك] انه اذا شارك والحكومة العراقية في الاجراءات التي ستجعل العراق مقيدا بالاغلال، فان البلد سينقلب عليه وعلى حكومته مباشرة . ان العراق في الوقت الحاضر محاط بالاعداء او الجيران المستائين ، فاذا لم يكن الشعب واقفا من نفسه ومتحدا ، واذا لم يكن تفاهم هذا الشعب مع بريطانيا مبنيا على الصراحة والكمال فان البلد لن يرى الاستقرار وعندها لن يكون هناك مفر من كارثة محققة . انه يعتقد اعتقادا راسخا بانه بواسطة صيغة او قرار من مجلس الوزراء او بيان من حكومة صاحب الجلالة [الحكومة البريطانية] يجب ان يوضح للشعب العراقي بان توقيع المعاهدة لن يغلق بوجههم باب التخلص من نظام الانتداب وانهم بالتزامهم ببنودها سيتمكنون من التخلص من الانتداب بواسطة الطرق الدستورية . ان الملك يشعر بأن انكار هذا الحق على الشعب العراقي سيؤدي بالمعاهدة ، اذا وقعت ، الى الفشل . لذلك فانه يتوجه بندائه الى الشعب البريطاني الذي يؤمن بالحرية ، والى دراية حكومة صاحب الجلالة بحثهم على الثاني وطول البال في معالجتهم وضع العراق بل وفي الواقع العالم العربي ككل ، وذلك بجعل قضية العراق قضيتهم وبالطلب من عصبة الامم ، عند تقديم المعاهدة ، بعدم المصادقة عليها كوسيلة

وجزء من الانتداب ، بل كبديل عنه تماما . ان طلب صاحب الجلالة [فيصل] هذا قد جاء بعد قراءته كل الامور المتعلقة بالموضوع بما فيها تصريحاتكم الاخيرة في البرلمان وانه يعلم بالصعوبات التي تواجهها ، لكنه مقتنع بأن انكلترا اذا كانت تمتلك الرغبة باجابة طلبه فانها يمكنها ان تجد صيغة اما بقرار يصدر عن الحكومة العراقية او يبلاغ الى عصبة الامم ينسجم مع متطلبات السياسات العالمية ، وفي الوقت نفسه يرضي طموحات العراق . انه [اي فيصل] اذا تمكن من اقناع شعبه بان التخلص من الانتداب لن يغلق بتوقيع المعاهدة ، ويطلب منهم الاعتماد عليه (كما هو مؤمل اذا تعاونت بريطانيا) في متابعة القضية دستوريا امام عصبة الامم ، فانه واثق بأن في استطاعته ايقاف كل الهياج القائم ضد الانتداب في البلاد ، وانه سيجد شعبه موحدا يسير من خلفه لتركيز جهوده للعمل بنجاح على ضوء المعاهدة . وفي النهاية قال [الملك] بانه يجب ان يعلن صراحة والى الابد بانه وهؤلاء الذين يشاركونه تفكيره سيستمرون في كل زمان ومكان بالمطالبة بالغاء الانتداب بالطرق المشروعة»(3) .

لقد اعقب كوكس برقيته هذه ببرقية اخرى مكملة لها في اليوم التالي 29 تموز هاجم فيها الملك فيصل وقال :

«الى وزير المستعمرات ـ سري وشخصي

اخشى ان المشكلة التي عرضتها لك في برقيتي المؤرخة في 28 تموز 1922 والمرقمة 528 ، مليئة بالصعوبات والتي سببها سلوك الملك الذي نحن نصبناه . بجانب عيوب وحسنات الاهداف التي يقصدها الملك ، فان التكتيكات التي استعملها في السعي وراء هذه الاهداف هي بلا شك غير مخلصة وغير مستقيمة وانه من الصعوبة ان نضع الثقة به . ان الملك يقول بأن الامل الوحيد هو ان نجد حلا للمشكلة الحالية ، ولكن حتى اذا وجدنا الحل فانني واثق بانه سيبدأ فصلا جديدا وسيستمر في لعبته

في حالة وصول حكومة صاحب الجلالة الى قرار بعدم اتخاذ اي اجراء امام عصبة الامم بالاتجاه الذي يرغبه الملك ، فانني اعود فاؤكد الاقتراح القائل بسفري وفيصل الى لندن بالطائرة بامل الوصول الى اتفاق عن طريق المباحثات الشخصية (4) . كوكس»

استحسن تشرشل فكرة الزيارة لانه اعتقد انه لايمكن ان يحصل اي تقدم في المباحثات عن طريق البرقيات المتبادلة ، كما وجد انه من الافضل ان يرى فيصل بنفسه لاستعراض الوضع ككل معه ، وحدد في برقيته في 3 آب موعدا خلال الاسابيع الثلاثة الاولى من ايلول(5) الا ان كوكس ابرق له في 10 آب قائلا :ـ

«لم يستحسن فيصل فكرة زيارة انكلترا في هذه المرحلة الحاسمة، الا اذا قدمت له ضمانات بتنفيذ مطالبه حول قضية الانتداب ، وان يسمح له بالاعلان قبل مغادرته انكلترا بأن بريطانيا قد تنازلت عن موقفها في موضوع انعتاق العراق من الانتداب ، وبانه عائد الى العراق لوضع الترتيبات الخاصة بتنفيذ هذا القرار»(6) .

لقد ابرق كوكس في اليوم نفسه برقيتين اخريين الى وزارة المستعمرات لغرض معالجة الوضع الذي اصبح متردديا بالنسبة للسلطة البريطانية في العراق نتيجة الهياج العام المسند من الملك فيصل وكانت البرقية الاولى بالشكل التالي :ـ

«لقد اتفقنا حول كل التفصيلات الخاصة بالمعاهدة ونحن بانتظار توقيعها فقط ، الا ان ذلك قد اصبح مستحيلا بسبب فشل الطرفين في الوصول الى فهم فيما يتعلق بالانتداب . نتيجة ذلك اقترح بأن تصدر حكومة صاحب الجلالة اعلانا رسميا الى الشعب العراقي تنشر معه المعاهدة وتوضح الصعوبات الدولية التي تواجهها بشأن مسألة الانتداب وتؤكد الاختلاف الكبير بين ما توصل اليه في المعاهدة لمصلحة العراق وبين الترتيبات التي وضعت في البداية بشأن الانتداب . ثم يستمر البيان بالشكل التالي :ـ

(هذه هي افضل الشروط التي يمكننا ترتيبها لاننا لسنا احرارا تماما . يجب ان تأخذوها او تتركوها . نحن نرغب في البقاء والمساعدة لانها مسألة شرف ، لكننا لانريد ان نكرهكم على قبول هذه المساعدة . ان اعتبار الانتداب شيئا جيدا او غير جيد امر يعود اليكم ، الا انه يجب ان تعلموا بأن هذه الشروط التي كان بامكاننا تقديمها اليكم هي افضل من الفوضى التي ربما ستظهر نتيجة رحيلنا عن العراق . فاذا قررتم الا تقبلوا هذا الترتيب فاننا سننسحب ولكننا سنبقى مستعدين لان نكون اصدقاء لكم . ان انتخابات المجلس التأسيسي ستجري قريبا ولن يتدخل فيها باية حال من الاحوال اي موظف بريطاني ، فاذا قررت اكثرية المجلس بأن الترتيبات التي قدمناها غير مقبولة فان انسحابنا من العراق سيبدأ حالا .)

في اعتقادي ان الاقتراح القائل باجراء الانتخابات بينما فيصل يساند العناصر المعادية للانتداب ونحن نساند المعتدلين امر مستحيل لان ذلك شيء غير مشرف من وجهة نظر حكومة صاحب الجلالة وان ذلك بالتأكيد سيؤدي الى ثورة مسلحة في البلاد من المستحيل ان تكون لها نهاية .

فيما يتعلق بالحل الذي اقترحته اعلاه فان الملك فيصل قد اعطى كلمة شرف بحضور كورنواليس بانه اذا وقف الانكليز جانبا خلال الانتخابات ولم يتدخلوا فيها فانه سيقوم بالشيء نفسه تماما ، ولن يتخذ اي موقف يراد به التأثير على الشعب ضد الشروط التي قدمت . واكد لي بانه يدرك جيدا ضرورة قبول قرار المجلس التأسيسي سواء اكان في صالح ما قدمناه من شروط او ضدها ، وانه اذا قبل المجلس التأسيسي المعاهدة مع الانتداب فانه سيعمل باخلاص على ضوء قرار المجلس .

ان فوائد هذا الحل هي :ـ

انها ستصلحنا مع الراي العام والاسلام وستسهل موقفنا وموقف الملك بشكل كبير . انها ستأخذ المبادرة من المتطرفين وتجبر كل الاطراف باتخاذ موقف معين . في حالة التصويت لصالح الشروط التي قدمناها، وهو ما اتوقعه بثقة ، فانها ستمكننا من التكاتف مع الشعب العراقي وفق شروط راسخة للصداقة . اذا كان هذا الحل مستساغا من قبل حكومة صاحب الجلالة فانني احث بشدة بان ينفذ حالا لان الوضع هنا يتدهور يوما بعد يوم . ان المتطرفين يسعون لجعل الناس يؤمنون بأن المعاهدة والانتداب سيفرضان عليهم بالقوة ، وان الشيء الوحيد الذي يمنع هذا الاجراء هو الهياج المنظم(7) .

اما الرسالة الثانية فقد اخبر كوكس وزارة المستعمرات فيها بان الاقتراح القائل بضرورة سفر الملك الى لندن في مثل هذه المرحلة

في اعتقادي ان الاقتراح القائل باجراء الانتخابات بينما فيصل يساند العناصر المعادية للانتداب ونحن نساند المعتدلين امر مستحيل لان ذلك شيء غير مشرف من وجهة نظر حكومة صاحب الجلالة وان ذلك بالتأكيد سيؤدي الى ثورة مسلحة في البلاد من المستحيل ان تكون لها نهاية .

فيما يتعلق بالحل الذي اقترحته اعلاه فان الملك فيصل قد اعطى كلمة شرف بحضور كورنواليس بانه اذا وقف الانكليز جانبا خلال الانتخابات ولم يتدخلوا فيها فانه سيقوم بالشيء نفسه تماما ، ولن يتخذ اي موقف يراد به التأثير على الشعب ضد الشروط التي قدمت . واكد لي بانه يدرك جيدا ضرورة قبول قرار المجلس التأسيسي سواء اكان في صالح ما قدمناه من شروط او ضدها ، وانه اذا قبل المجلس التأسيسي المعاهدة مع الانتداب فانه سيعمل باخلاص على ضوء قرار المجلس .

ان فوائد هذا الحل هي :ـ

انها ستصلحنا مع الراي العام والاسلام وستسهل موقفنا وموقف الملك بشكل كبير . انها ستأخذ المبادرة من المتطرفين وتجبر كل الاطراف باتخاذ موقف معين . في حالة التصويت لصالح الشروط التي قدمناها، وهو ما اتوقعه بثقة ، فانها ستمكننا من التكاتف مع الشعب العراقي وفق شروط راسخة للصداقة . اذا كان هذا الحل مستساغا من قبل حكومة صاحب الجلالة فانني احث بشدة بان ينفذ حالا لان الوضع هنا يتدهور يوما بعد يوم . ان المتطرفين يسعون لجعل الناس يؤمنون بأن المعاهدة والانتداب سيفرضان عليهم بالقوة ، وان الشيء الوحيد الذي يمنع هذا الاجراء هو الهياج المنظم(7) .

اما الرسالة الثانية فقد اخبر كوكس وزارة المستعمرات فيها بان الاقتراح القائل بضرورة سفر الملك الى لندن في مثل هذه المرحلة

الحاسمة قد اثار فيصل وانه يشك بانه سيطلب منه ان يستقيل اذا سافر الى بريطانيا . وفي اليوم التالي 11 آب ابرق المندوب السامي طالبا اضافة عبارة الى بيانه المقترح تقول باننا قد حصلنا على تاكيد من الملك فيصل بانه لن يتدخل ايضا في الانتخابات . وفي يوم 16 آب ابرق المندوب السامي الى وزارة المستعمرات قائلا بانه بابعاز من الملك فيصل وزعت منشورات ورسائل الى الصحف تطالب بالغاء الانتداب ورفض المعاهدة واسقاط الوزارة النقيبية التي وقعتها ونقل ادارة شؤون العراق الى وزارة الخارجية البريطانية بدلا من وزارة المستعمرات . واضاف كوكس ان مسودة المعاهدة غير المعلنة قد وزعت من قبل الملك على المتطرفين لغرض انتقادها بشدة واضاف بان اتخاذ اجراءات قسرية حازمة ستوقف تدهور الموقف وان هذه الاجراءات يجب ان يتخذها المندوب السامي والقوات البريطانية وليس الملك او الحكومة العراقية(8). في اليوم نفسه اجابت وزارة المستعمرات بان تشرشل في فرنسا وقد ارسلت له جميع البرقيات المتعلقة بالمعاهدة ثم اضاف الجواب :ـ

«نأمل ان قرارا سيصلكم خلال خمسة او ستة ايام في الوقت نفسه نرجو ان تبرق حالا حول : هل ان فيصل ادرك بان هناك خطرا في تاخير توقيع المعاهدة وانه سيوقعها في الحال اذا اصررنا نحن بانه يجب ان يقوم بذلك بدون مناقشة وبتاريخ نحدده له ، وان الخيار الاخر هو انه لاتكون هناك معاهدة بتاتا ؟

بتقديرك ما هي نتائج التوقيع الذي حصلنا عليه (توقيع مجلس الوزراء) او نتائج استمرار النظام غير المستقر اذا لم ينفع الانذار لفيصل .»(9)

في اليوم التالي 17 آب اجاب كوكس وزارة المستعمرات بالقول :

«انني اشك في اننا سنكون قادرين على المحافظة على الوضع لمدة خمسة او ستة ايام اخرى بدون ظهور تطورات غير مفضلة تدعو اما الى اللجوء الى اجراءات عنيفة لانهاء الهياج او التسليم له . قابلت البارحة الملك فيصل، قبل وصول برقيتكم الخاصة بتاجيل اتخاذ قرار لحين وصول جواب وزير المستعمرات . لقد ذكرت الملك فيصل بان البيانات المعادية كانت موقعة من اشخاص معروف عنهم انهم تحت تاثيره ، وعليه فانه من السهل عليه ان يبقيهم هادئين لبضعة ايام قليلة بانتظار اعلان من لندن .

في الحقيقة ان بامكان فيصل ايقاف هذا الهياج ، الا انه الان لن يتمكن حتى لو رغب في ذلك . ان فيصل بلا شك كان وما زال يريد توقيع المعاهدة بشرط ان يسمح للحكومة العراقية ان ترفق بالمعاهدة قرارا يشير بعدم قبول الانتداب ويشترط بان لايمنع العراق من استمراره في الدعاية والوقوف ضد الانتداب .

بلا شك ان الحل البسيط هو ان نسمح للملك باصدار قراره هذا لنحصل على توقيعه على المعاهدة وعلى اكثرية معتدلة تؤيدنا لسحق المتطرفين وهياجهم ضد الانتداب . انه ليس حلا كافيا وانني لم اقرر ان اكون طرفا فيه بدون توضيح تام لحكومة صاحب الجلالة لكن اذا كانت حكومة صاحب الجلالة ترغب بتطبيقه فانني مستعد للتوقيع . بناء على ذلك واذا ما بقي فيصل محافظا على السماح للهياج المعادي للانتداب بالاستمرار ، عندها ساطلب اعفائي من منصبي كاحتجاج ، ان توجيه الانذار لفيصل خارج عن الصدد في تقديري . انه سيؤدي فقط الى ان فيصل سيضحي بنفسه مما يقدم للمتطرفين حافزا جديدا. الانذار الوحيد هو ما اقترحته في برقيتي 555 والذي يجب ان يوجه الى الشعب العراقي . ان التوتر قد وصل الى مرحلة الانفجار وعليه لا يمكننا تأجيل المعاهدة والاستمرار على النظام الحالي .

الحل الاخر الممكن تصوره هو انه يجب ان نطرد بشكل عام بان الملك فيصل لم يتمكن من اقناعنا واننا لسنا مستعدين منذ الان لان نغير الانتداب على شكل معاهدة وعليه فاننا سنعود الى نظام الحكومة المؤقتة قبل تتويج فيصل حتى نصل الى اتفاق وسلام مع تركيا . ان ذلك سيتضمن ازالة الملك فيصل وبعض اعوانه من الساحة (10) .

كوكس»

بعد ثلاثة ايام من تاريخ البرقية اعلاه وصل الى كوكس جواب تشرشل :

«برقيتك المرقمة 555 والبرقيات الاخرى المتعلقة بها . الاقتراح بان فيصل يجب ان يأتي الينا كان اقتراحك انت وليس نحن . لايمكن باية حال من الاحوال اعطاء فيصل التعهد الذي يطلبه . كذلك فان المعاهدة كانت اقتراحا من فيصل وليس من عندنا . انه من واجبه هو ان يقترح طرقا للهرب من الورطة التي خلقها . في الوقت نفسه ونظرا لموقف الملك فانني اوافق على احالة موضوع عرض مساله بقائنا في العراق على مجلس تاسيسي الى الوزارة التي ستجتمع في اوائل ايلول. ارجو ان تعلم الملك بفحوى هذه الرسالة . آمل ان لاتكون همتك قد انبطت او تعبت من لعب هذه اللعبة الطويلة .

تشرشل»

لقد اعقب تشرشل هذه البرقية ببرقية اخرى في 22 آب قال فيها:

«انني اتفق معك حول الحفاظ على الامن عند الحاجة لغرض ضمان سلامة الاوربيين . اخبر فيصل بان قرارا من الوزارة البريطانية سيتخذ في بداية ايلول وسارسله له شخصيا وباسم الوزارة في الوقت نفسه فانه يتحمل كل المسؤولية في منع حدوث اي منف تكون نتائجه مفجعة للعراق»(11) .

فيصل يصر على موقفه :ـ

لقد حددت برقيتا تشرشل الاخيرتان الموقف فقد رفضت مطالب فيصل ، بل ووجهاليه انذار بتحميله مسؤولية حدوث اية تطورات غير صالح بريطانيا في العراق . الا ان فيصل اصر بعناد على التمسك بمطالبه حول الانتداب وقد تجلى ذلك في برقية كوكس المؤرخة في 23 آب حيث شرح فيها تطورات الموقف ولحين يوم الاحتفال بالذكرى الاولى للتتويج وهو تاريخ ارسال البرقية ، وكانت كما يلي :

«كما اخبرتكم فان المطالب التي وردت في بيانات ومذهب المتطرفين هي حل الوزارة الحالية لانها اولا قد قبلت المعاهدة وثانيا لعدم وجود سياسة واضحة لديها . ان الاتهام الثاني يعني ان الوزارة ككل معتدلة وليست متطرفة ، وان المتطرفين قد ادركوا بانه طالما هي التغيب في الحكم فلا امل لهم في السيطرة على الانتخابات المقبلة وكذلك التعيينات الوظيفية في الالوية . في الوقت نفسه ، وبالتعاون مع المتطرفين ، فان الملك فيصل قد بدأ حاليا بالتشكي الى من ان الوزارة غير نافعين وانه تعب من حكومة التغيب ويرغب في اجرائه من الوزارة لقد الحجت على الملك بشدة بانه من الضروري بقاء التغيب ووزرائه التي ان يتم تصديق المعاهدة وذكرته بانه بمحاولته التخلص من التغيب فانه يتصرف بطريقه تعود على المتطرفين بالفائدة . لقد سلك فيصل ظاهرا

بوجهات نظري الا انه بدا حالا يتصرف نحو الوزارة بطريقة دفعت مجلس الوزراء الى اتخاذ قرار بوجوب كتابة رئيس الوزراء الى الملك موضحا بأن الوزارة ترغب في مثل هذه المرحلة الحاسمة ، ان تحصل على مساندته وتعاونه . الا ان فيصل ارسل لهم جوابا غامضا فسر من قبل الوزراء على انه رفض لمساندتهم ، وعليه فقد استقال جميع الوزراء عدا واحد منهم . لقد رفض رئيس الوزراء قبول الاستقالات لحين الاستفسار من الملك فيما اذا كان يريد من جوابه الى مجلس الوزراء القول حقيقة بان الوزارة لاتمتلك ثقته . بناء على ذلك فقد قابلت الملك وحثثته بأن يجيب بانه لم يكن يقصد بانه لايثق بمجلس الوزراء وانه يؤيد عدم قبول النقيب استقالات الوزراء ، كما طلبت منه ان يخبرهم بأنه يأمل ان يستمروا في اعمالهم الوزارية وسيكون مسرورا للتباحث مع لجنة تشكل منهم لغرض رسم خطوط سياسة الحكومة بشكل اكثر تحديدا . لقد اجابني الملك بما فهمت منه انه سيعمل بناء على توصياتي ، لكنه لم يقم بذلك ، بل بدا بعد ذلك يناقش بانه طالما ان معظم وزراء النقيب قد استقالوا ، فمن الضروري ، من وجهة النظر الدستورية ، ان يستقيل النقيب ايضا ، في الوقت نفسه فانه عند قبوله استقالة النقيب سيكلفه هو نفسه مرة ثانية بتشكيل الوزارة الجديدة . ما ان استقال رئيس الوزراء بناء على تأكيدات الملك ووعوده حتى ابدل الاخير موقفه ، اذ انه حالما قبل الاستقالة طلب من النقيب ان يجيب على عدد من الاسئلة تتعلق بالسياسة التي يريد اتباعها كرئيس للوزراء في مجالات متعددة .

ان استقالة النقيب قد نشرت وان فيصل قد نجح في لعبته لصالح المتطرفين ، وعليه فانه لاتوجد وزارة في الوقت الحاضر . سأبذل جهدي لضمان رجوع النقيب الى منصبه الا انني اشك في الملك فيصل الذي يريد ان ينصب للنقيب فخا بدفعه للاعلان بانه مع المعاهدة ومع السياسة البريطانية ، مما سيمكن فيصل القول بان التذمر العام يمنعه من اعادة تعيين النقيب كما كان يأمل . اذا ذهب النقيب في النهاية فانني اشك في امكان اقناع اي شخص مقبول لتأليف الوزارة في مثل هذه الظروف . كل الرجال الجيدين مشمئزون من انحرافات فيصل(12) .
كوكس»

احداث يوم ذكرى التتويج

قبل حلول الذكرى الاولى لتتويج فيصل بيومين ارسل فيصل الى المندوب السامي رسالة يطالب فيها باتباع خط سياسي واضح في العراق لذلك فقد سأل الملك المندوب السامي ان يخبر الحكومة البريطانية بان هناك احتمال نشوب ثورة في البلاد نتيجة الوضع الحالي وعليه اما ان يتحمل المسؤولية المندوب السامي او ان تعطى له المسؤولية كاملة للحفاظ على الامن مع الحرية الكاملة والمباشرة في ادارة شؤون البلاد .

لقد نشر ايرلاند هذه الرسالة كذلك اقتبسها عنه المؤرخ العراقي السيد عبدالرزاق الحسني ، الا ان جواب كوكس على الرسالة لم يصل فيصل ولم ينشر اذ حل يوم التتويج وجرت الاحداث بشكل آخر . على اية حال أورد هنا صيغة مسودة الجواب الذي اعده كوكس والذي طلب من وزارة المستعمرات الموافقة عليه لارساله الى الملك ، وكان تاريخ البرقية هو يوم 23 آب 1922 وهي كما يلي :

«ان مطلب الملك بأن تعطى الحرية له لادارة شؤون البلاد هو واحد من المطاليب التي اعلنت حاليا في بيانات ومنشورات المتطرفين . انه يعني ببساطة انه طالما ان بامكان المندوب السامي التدقيق بما يجري في البلاد فان الملك والمتطرفين لن ينجحوا ، في الوقت نفسه فان العناصر المعتدلة ستتوحد وتصبح اكثر قوة يوما بعد يوم . انني اعتبر رسالة فيصل ، سواء كان رأيي صحيحا أم خاطئا ، مجرد خديعة لنا ، وعليه اقدم مختصرا للجواب الذي اعددته :

(البداية) انه ليس من الواضح لي ما يريده فيصل من مطالبته بسياسة محددة واكثر وضوحا . هل هي سياسة حكومة صاحب الجلالة أم سياسة الحكومة في العراق ؟ بلا شك ان سياسة الاخيرة تتبع الاولى . ان سياسة حكومة صاحب الجلالة قد اخذت بنظر الاعتبار التقدم الذي حصل في العراق منذ الهدنة ، وعليه فقد شعرت ان من العدل تفسير الانتداب بواسطة معاهدة مع العراق مع بقاء المسؤوليات المترتبة عليها تجاه عصبة الامم . بقدر تعلق الامر بتفصيلات المعاهدة فاننا قد توصلنا الى اتفاق ولكن توقيعها قد تأخر بسبب عدم تمكن حكومة صاحب الجلالة من الاستجابة لرغبات الملك الخاصة بالغاء الانتداب . لقد طلب من حكومة صاحب الجلالة ان تتخذ قرارا نهائيا ومعلنا بشأن العرا قلكن الوزارة البريطانية لن تجتمع قبل بداية شهر ايلول وعليه فان من واجبنا انتظار القرار بصبر .

اما فيما يتعلق بموضوع المسؤولية فكما اخبرته سابقا فانه لايوجد شك حولها ، فبانتظار تصديق المعاهدة والتي ستعدل بلا شك في قضية المسؤولية ، فان مسؤولية البلاد واحدة ومشتركة بين الحكومة العراقية التي يراسها جلالته وبيني كممثل للحكومة البريطانية . وعليه فانه لايمكن بأية حال ان يجرد نفسه او اجرد نفسي من المشاركة في المسؤولية لذلك لا ارى هناك ضرورة لاحالة الموضوع الى حكومة صاحب الجلالة . انه من واجب حكومته وواجبي العمل معا لاتخاذ اجراءات لمجابهة متطلبات الوضع . انني اتفق معه بأن هذا امر مزعج ولكنني سأركز باخباره ، كما اخبرته سابقا شفهيا بان الاشخاص المسؤولين مبدئيا عن عدم الاستقرار هم انفسهم ينالون رعايته ومساندته وان مجرد اشارة واضحة منه لهم ستوقف كل شيء . واتابع فأقول له بأنني اعتقد ان المسؤولية الكبرى في تدهور الوضع الحالي تقع على عاتقه شخصيا . على اية حال فان الطريقة المناسبة هي ان تقوم الحكومة العراقية بالتشاور معي حول الخطوات التي تتخذها واذا ما اهملت استشارتي فانني مستعد بالتشاور مع قائد القوات المسلحة لاتخاذ التدابير الضرورية ، الا انني كاره لعمل ذلك . ثم احذر جلالته [فيصل] بأنه اذا اصبح اتخاذ هذه التدابير ضروريا فان مسؤولية ذلك ونتائجه تقع على عاتقه

(انتهت صيغة الجواب)

لما كانت لاتوجد في الوقت الحاضر حكومة في العراق فقد اتخذت الترتيبات اللازمة لاجراء خفارات دورية بواسطة الطيران(13) .
كوكس»

كان اليوم الذي ارسلت فيه هذه البرقية هو يوم ذكرى التتويج وقد قام الحزبان الوطني العراقي والنهضة بتنظيم تجمع كبير في البلاط لتحية الملك بالمناسبة ، كما قدم الوطنيون الى الملك مطاليب نشروها في الصحف المحلية . اضافة الى هذا فقد استقبل الملك فيصل وفدا عن الحزبين المعارضين قبل استقباله المندوب السامي للتهنئة وسمح لاحد اعضاء الوفد هو المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير بالقاء خطاب من شرفة استقبال الملك اوضح فيه كيف انهم كانوا يطالبون باجراء

انتخابات لجمع المجلس التأسيسي ، الا انهم الان يعارضون ذلك لان الوضع والواقع الاداري والسياسي للبلاد لن يسمح باجراء الانتخابات بحرية تامة . المهم في الموضوع هو ان الملك ، كما يبدو ، قد رتب لكل هذا بعد ان وجد ان تشرشل وافق على اجراء الانتخابات . لقد كان فيصل يعلم جيدا ان هناك لعبة ، وهو ما اورده تشرشل في برقيته الى كوكس ، وكان يعرف ان الانتخابات ستزور لصالح البريطانيين ، لهذا لعب لعبته هو ايضا باثارة الوطنيين ضد اجراء الانتخابات وهو ما فعله بالضبط عندما سرب نصوص المعاهدة الى الوطنيين لنقدها بشدة . واترك الحديث للمندوب السامي البريطاني في وصفه احداث ذلك اليوم الى وزارة المستعمرات البريطانية :ـ

«الى وزير المستعمرات (سري رقم 597 بتاريخ 25 آب 1922)
ما يلي لمعلوماتكم :ـ

مرت في يوم 23 آب الذكرى السنوية لتتويج فيصل ، وقد اعتبر ذلك اليوم عطلة رسمية كما استقبل الملك المهنئين في السراي . لقد ذهبت للتهنئة مع الهيئة العاملة معي في الوقت الذي حدد لنا . عندما دخلت ساحة السراي وجدت حشداً مؤلفا من بضع مئات من الناس ملتفين حول بناية الملك . لقد افسحوا المجال لسياراتي بالمرور وعندما بدات اصعد الدرج لاحظت بأن الحشد كان يستمع الى خطاب من شخص يقف مع مجموعة من الشخصيات العربية في شرفة الغرفة التي كان فيصل يستقبل فيها وفود المهنئين ، وعند اجتيازي للدرج صفق الحشد لبعض الملاحظات التي صدرت من شخص ما من بين المحتشدين والتي لم اتمكن من سماعها . بعد مغادرتي السراي بدقائق تفرق الحشد . لقد طلبت اعلامي بما كان يجري ، وقد وجدت بأن الملك قد استقبل مباشرة قبل استقباله لي ، الحزب السياسي المتطرف، وعند انتهاء المقابلة اتجهوا الى الشرفة المطلة على ساحة السراي حيث القى الاعمى الديماغوجي المهيج للناس ، السيد مهدي البصير الحلي خطابا في الحشد ضد السياسة البريطانية والاستعمار البريطاني .اما عن الملاحظات التي سببت تصفيق الحشد عند حضوري فقد كان هتافا يقول (يسقط الانتداب) . عند اطلاعي على هذا التقرير كتبت في الحال احتجاجا شديد اللهجة الى فيصل مطالبا بالاعتذار حالا عن الاهانة الفادحة لممثل حكومة صاحب الجلالة ، واقالة كبير امناء الملك فهمي المدرس الذي اشار او سمح للديماغوجي بالقاء خطابه بل انه وقف الى جانبه عند القائه الخطاب . كذلك طلبت قائمة باسماء الاشخاص المكلفين بحماية القصر الملكي .

لقد نقل فيصل الى فراشه هذا اليوم حيث يزعم انه يشكو من الم حاد في المعدة . مع ذلك فقد استلمت الاعتذار كما قبلت مطاليبي»(14) .

في اليوم نفسه ابرق المندوب السامي بان فيصل قد اصيب بالزائدة الدودية وان عملية ستجرى له(15).

الملك فيصل مستعد للتضحية بالعرش من اجل القضية :

في يوم 26 آب 1922 ابرق كوكس الى تشرشل قائلا :ـ

«بموافقة مستشار الملك الطبي قمت و كورنواليس بزيارة الملك في الصباح الباكر ليوم 25 وقبل اجراء العملية له بساعتين . لقد اوضحنا له باننا كما يبدو قد اصبحنا نسير في طريقين مختلفين . ان القاء الخطاب من شرفة احدى غرفه لحظة زيارتي له تعني انه قد اصبح بشكل واضح مع حزب الوطنيين المتطرفين الذين يثيرون الهياج ضد البريطانيين ، وانه مسؤول عنهم . لقد اخبرته بان عليه اما ان يعلن بشكل عام انفصاله وعدم علاقته بالمهيجين ويسير معنا بشكل تام، او ان يتحمل النتائج والتي ، كما نرى ، تعني نهاية عرشه . بناء على ذلك فانني ابلغته باثني وبعد التشاور مع كورنوالس ومفتش الشرطة العام قد قررنا بان محرضي الفتنة من اعضاء حزبه قد اجتازوا الان الحدود ، وانه اذا لم يتخذ اجراء حازم ضدهم فانه سيكون من المستحيل صيانة السلام العام في البلاد . لقد سالناه ان يصدر الاوامر بالقاء القبض على سبعة من زعماء الفتنة بما فيهم الديماغوجي الذي القى خطابا رنانا من شرفته . لقد قضينا ساعة كاملة مع الملك نحاول اقناعه بان هذه هي فرصته لينقذ نفسه وليتخلص من ايدي هؤلاء المهيجين ، لكننا ، واقولها بكل اسف ، قد فشلنا في اقناعه للقيام بذلك.

لقد حاججنا فيصل بالقول بان مثل هذا الاجراء سيؤدي الى ثورة في البلاد ولن يوقف احدا ، وانه ليس مستعدا لتحمل مسؤولية ذلك على عاتقه . انا مقتنع شخصيا بانه مرتبط جدا بهؤلاء المتطرفين ومستند الى قوتهم المبالغ بها وعليه فانه وببساطة خائف من الالتفاف عليهم .

مع عدم وجود حكومة في البلاد في الوقت الحاضر ، وعدم قدرة الملك على العمل بسبب مرضه ، فقد قررت ان اتخذ الاجراءات اللازمة بنفسي ، عليه فقد امرت بالقيام بحملة اعتقالات هذا الصباح ولقد تم القبض على اربعة متطرفين ارسلوا الى البصرة لابداعهم في الموقف العسكري هناك . اربعة آخرون اقل اهمية اختفوا ولم يفتش عنهم لحد الان . لقد تم اغلاق الحزب المتطرف مؤقتا كما اغلق مقره وتم اغلاق صحيفتين كانتا قد نشرتا بيانات الحزب [المفيد والرافدان] وقد القي القبض ، او على وشك القاء القبض على محرري الجريدتين. اعتقد ان هذا الاجراء سيحافظ على الاستقرار لحين صدور قرار نهائي من حكومة صاحب الجلالة .

في مساء هذا اليوم ، 26 آب ، سأقوم باصدار بيان الى العراقيين وسابدأ فيه بايضاح بأن قرارا نهائيا لن يمكن اتخاذه قبل اوائل ايلول لان البرلمان والوزارة البريطانية يتمتعان الان بعطلتهما ، وعليه فان عليهم ان ينتظروا ذلك بصبر . بانتظار تصديق المعاهدة فان مسؤولية المحافظة على النظام مشتركة بين الحكومة العراقية والمندوب السامي . لسوء الحظ لاتوجد حكومة الان كما ان الملك قد اصبح فجأة عاجزا عن العمل بسبب مرض خطير ، عليه فان المندوب السامي قد تحمل المسؤولية لوحده لاتخاذ اجراءات من شأنها المحافظة على الامن ، وقد قرر اتخاذ الخطوات التالية : ان الاجراء الذي اتخذ لايعني تغييرا في السياسة ان جميع الاشخاص المطيعين للقانون من الذين يؤمنون بمصلحة البلاد قلبيا ومن الذين يتوقون الى المحافظة على علاقات الصداقة مع بريطانيا العظمى مدعوون للوقوف جميعا للمحافظة على النظام ولمنع المهيجين، عديمي المسؤولية من التاثير على السلام او العلاقات الحميمة بين البلدين (انتهى)

هناك احتمال بأن اثنين من العلماء في الكاظمية سيبيان مشاكل، لكنني آمل ان الاجراءات التي اتخذت سيكون لها تاثيرها عليهما»(16).

انطباعات كوكس وكورنواليس عن فيصل كملك :

خلال مرض الملك فيصل ابرق كل من كوكس وكورنواليس الى وزير المستعمرات تشرشل حول انطباعاتهما عن الملك فيصل ظهر من خلالها انهما لايعتبران فيصل شخصا يصلح لان يكون ملكا بسبب عدم تعاونه مع بريطانيا وبسبب مزاياه الشخصية التي لا تؤهله لتولي المسؤولية حسب رايهما. ان هاتين البرقيتين دليلان ناصعان على وطنية فيصل اذ تعكسان ما استنتجه المسؤولان البريطانيان في العراق خلال عملهما مع فيصل اذ عبرا عن استياء شديد منه بسبب موقفه الصارم ضد بريطانيا من اجل الاستقلال التام :

«الى وزير المستعمرات البريطاني (سري وشخصي)

انني ادرك ان نجاح او فشل فيصل كملك على العراق بضمنه سياستنا المتعلقة بذلك ، هو اكثر اهمية من كونه مسالة داخلية . وان انهيار متابعة الهدف الذي جلبنا فيصل من اجله الى هنا ، الى جانب خذلانه لنا امام الفرنسيين ، ربما يدعو الى اعادة صياغة سياستنا العربية ككل . في الوقت نفسه فانني اعتقد انه يجب ان اطلعك شخصيا على النتائج المخيبة للامال والتي توصلت اليها بعد سنة من التعاون مع فيصل :

لم اكن قد قابلته من قبل . لقد توقعته عندما جاء الى هنا ان يكون شخصا مرغوبا فيه كما صوره لنا مستشارونا . لقد سعيت للعمل معه بكل اخلاص وصراحة ولكنني بالتدريج تحررت من هذا الوهم انه ذو اخلاق ساحرة في علاقاته مع الاخرين وهو لطيف ومضياف الى آخر الحدود ، لكنه الى جانب ذلك لا يمتلك ، كما يبدو لي ، المؤهلات الضرورية لتجعله ملكا جيدا . انه ضعيف وغير مستقر . انه يعطي كلمته بسرعة ثم يتملص من تنفيذها بسرعة . انه خبيث وضليع بتدبير المكائد واحكامه عن الرجال رديئة . انني لااعتقد بانه يمتلك اية فكرة للعمل كملك دستوري بل ان طموحه هو ان يكون حاكما اوتوقراطيا مديم المسؤولية .

في المناطق الادارية البعيدة عن التدخلات الماكرة لفيصل وبطانته مثل البصرة والعمارة والكوت ، فان الادارة هناك تسير منذ سنة بكل سهولة وبحسن نية وتعاون كاملين بين البريطانيين والموظفين العرب ، بينما نلاحظ العكس في مقاطعات الحلة والناصرية القريبة من بغداد والتي هي اكثر نضجا في السياسة كما انها حقل فيصل المفضل للعمل. ان اختياره الرديء للموظفين العرب وتدخله الطائش كان لهما تاثير من المتعذر تجنبه .

ان الاتصال المباشر للموظفين الشوفينيين بالبلاط واستلام الاوامر من هناك بدلا من وزارة الداخلية قد جعلهم يعملون من خلف ظهر مستشاريهم [البريطانيين] فاهملوا واجباتهم من اجل اطلاق العنان للدعايات والاحزاب السياسية . لقد كانت نتيجة ذلك ان توقف دفع الضرائب وانتشر العداء بين الطوائف والقوميات . ان هياج المتطرفين كان نتيجة لتشجيع الملك ودعمه لهم ودعم موظفيه الذين اختارهم لادارة المقاطعات . ان العناصر المعتدلة غاضبة ممتعضة نتيجة تحفظي وتحفظ المستشارين البريطانيين منهم .

مرة اخرى فان فيصل ياخذ بسرعة باقاويل الذين يعتابون الاخرين وهو يظهر عداءه بسرعة ضد المستشار او الموظف البريطاني الذي تشوه سمعته اتباع الملك من المتطرفين ، ليس لشيء سوى ان ذلك

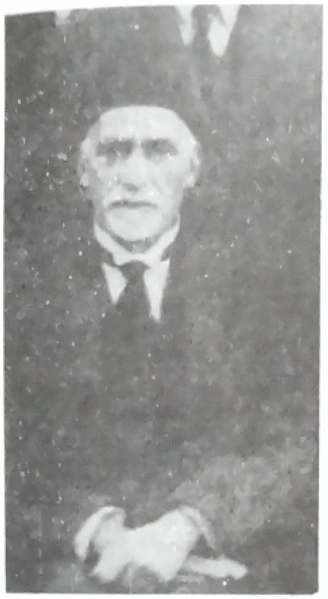

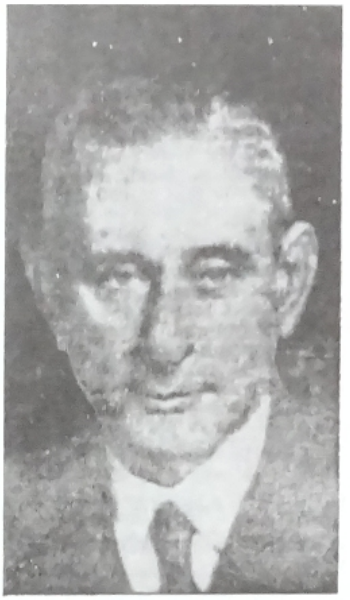

■ كورنواليس ■ سايكس (حقيقي)

■ بيرسي كوكس ■ تشرشل

البريطاني يمتلك تأثيرا شخصيا قويا جدا . وهكذا فان فيصل قد رفض ان يرجع نولدر وبدل كل جهده من اجل ازالة يلتس وهو بلا شك لن يبقي ديكسون ، لانهم وببساطة قد ادوا واجباتهم بدون خوف . لقد عمل كورنواليس مع فيصل بصبر واخلاق لكن المقاييس قد سقطت تدريجيا من نظره ، وقد ابلغني بان تعاونه مع فيصل في سوريا لم يمكنه من تقدير عدم كفاءة فيصل التي اظهرها هنا خصوصا عجزه في اصدار الاحكام .

ان النقيب [عبدالرحمن] وساسون [حسقيل] والاخرين من عقلاء بغداد يعتبرون فيصل انسانا غير موثوق به تماما.اما في بقية انحاءالبلاد فان الرجال المعتدلين الصلدين ينظرون الى فيصل بازدراء واحتقار . انني اشعر دائما بالخجل تجاه هؤلاء الناس واسال نفسي لماذا وثقنا بفيصل ولم نثق بهم .

انني أدرك تماما باننا مادمنا قد نصبنا فيصل ملكا ومادام العراق قد قبله فانه ليس من الممكن او المفيد ان نقوم بأي تغيير وان العراق وفيصل يجب ان تعطى لهما الفرصة . ولكن لما كان اجتماع مجلس الوزراء البريطاني لن يتم قبل اسبوعين او اكثر فقد اعتقدت انه من المرغوب فيه ان اخبرك شخصيا بالنتائج التي توصلت اليها . ارجو ان تعامل هذه الانطباعات بالشكل الذي تعتقد انه الافضل(17) .

كوكس»

بعد اربعة ايام من تاريخ هذه البرقية كتب كوكس الى تشرشل لينقل اليه انطباعات كورنواليس عن فيصل لاستاد ما توصل اليه هو في برقيته السابقة . وقد ابتدا برقيته بالشكل التالي :

«الى وزير المستعمرات البريطاني (خاص . رقم 608)

لما كان مستقبل فيصل معلقا بالميزان فانه من الانصاف له ان اطلعكم بالراي الذي توصل اليه كورنواليس بعد خبرة اشهر من العمل مع صاحب الجلالة [فيصل] . وهو كما يلي :-

(لقد جئت اساسا الى العراق بسبب ثائري التام بفيصل . لقد كنت اعلم بانه يحمل اسمى الاهداف من اجل مستقبل العرب . وقد كنت مقتنعا بانه يؤمن بان مستقبل العرب يعتمد على الصداقة معنا . انا لا اشك بانه لازال يؤمن قلبيا بذلك ، لكنه اضاع نفسه بالاعيبه المحيرة ففشل في العمل من اجل مبادئه . ان التاخير الطويل في عدم الوصول الى نتيجة حول قضية الانتداب والمعاهدة قد ساهم بلا شك في ذلك . وانني اعتقد ان سلوكه هو السبب لاغير . لقد سمح لنفسه ان يحاط بعدد من المتطرفين الذين يركضون وراء مصالحهم الخاصة وان يستوعب بسرعة اكاذيبهم حتى اقتنع تماما بان غالبية الشعب معه . اما في القضايا الادارية فانه شخص متعب كثيرا ،فهو باستمرار يتدخل في التعيينات والمسائل الاخرى مما يجعل وضعي محرجا . لقد عيل صبري معه ، وانني واثق بان مستشاريه يحثونه على فرض نفسه لدرجة انه يرفض في بعض الاحيان النصائح المخلصة التي يقدمها له المندوب السامي . انني اغتنمت كل الفرص للاحتجاج عليه . وفي الحقيقة فان اجتماعاتي معه خلال الاشهر الاربعة الاخيرة كانت عبارة عن سلسلة من الانتقادات والتوبيخ اللذين وجهتهما اليه . لقد اخبرته انه اذا كان احدنا في الاساس لا يرغب بالاخر فاننا سنصل الى نقطة اللاعودة . انني اشعر انه يجب علي ان اعترف بفشلي في محاولتي ابقاءه داخل الحدود المطلوبة . اعتقد ان طبيعته في العناد الشديد لاتمكن اي شخص ان ينجح فيما حاولت القيام به .

على الرغم من ان فيصل ضعيف ومضلل فانني واثق بانه يرغب في صداقتنا وعقد معاهدة معنا منذ اليوم الاول الذي جاء فيه الى العراق . برايي ان فيصل يجب ان ينقذ من نفسه ومن يسمون باصدقائه،واننا ، وبعد كل ما حدث،نمتلك الفرصة للاصرار على اجراء تبديلات في حاشيته وان يعلن بانه مع المعتدلين وانه سيتقيد بنصوص دستورية ثابتة . ان هذا سيغير بشكل كبير من وجهة نظره وسيحسن الوضع في العراق . من ناحية اخرى فان التخلص من الملك سيخلق وضعا لا امل فيه . اننا يمكن فقط ان نقدر وبكل اسف بان فيصل كان خيبة امل لنا ويجب علينا اصلاحه اذا امكن . بالرغم من انتقادي التام له فانني يجب ان اوضح تماما بان تاثري به لم يتغير وان عيوبه تعود الى ضعفه وسلوكه واحكامه الخاطئة وليس الى فطرته. كوكس»(18)

التخطيط لتطويق فيصل واخضاعه :

كان توجيه ضربة قوية للوطنيين جزءا اساسيا من عملية اخضاع فيصل وقهره ، اذ انه بقي وحيدا بعد ان تلاشى اسناد الشارع له على اثر نفي زعماء الحركة الوطنية وقصف العشائر العاصية للانتداب بالطائرات ، ولم يبق على المندوب السامي وحاشيته غير وضع الملك امام الامر الواقع ، عليه فقد ارق كوكس يوم 27 اب 1922 الى تشرشل قائلا بان اجراءاته ضد الوطنيين قد لقت جميعها وان الاعلان الذي اشار اليه في برقيته رقم 605 كان له تاثير ممتاز . في الوقت نفسه ، والحديث هنا للمندوب السامي ، فان فيصل يتمثال للشفاء بسرعة ، وسيسمح للزوار برؤيته خلال ايام قليلة . ان وضعه السياسي ومستقبله قد تاثرا حتما بالاجراءات التي اتخذتها وقبل ان يناقش كورنواليس او اناقش انا الوضع معه يجب ان نقرر الطريقة التي سنتناقش معه على ضوئها. اذا رفض فيصل التعاون معي بشان الاجراءات التي اتخذتها عندها يصبح واضحا ان احدنا يجب ان ينقاعد عن العمل . اما اذا ابدا فيصل بيان عام الاجراءات التي اتخذتها وبدا تعاونه علنا مع المعتدلين فانه بهذا سيصبح معنا ... اذا رفع الحصر على الزيارات الخاصة للملك قبل وصول اية اشارة من حكومة صاحب الجلالة فانني اقترح ان اتحدث معه بالشكل التالي :

(البداية) ان الراي العام لايعلم برفضه التعاون معي . فاذا هو الان لايريد ان يصدق على اجراءاتي فيجب ان يرحل احدنا . انها فرصته الاخيرة لتبديل موقفه والوقوف علنا بجانبنا بواسطة بيان عام يعلن فيه تاييده التام للاجراءات التي اتخذها المندوب السامي للمحافظة على النظام خلال مرضه . عليه ان يدعو الشعب للاقرار بان خلاص العراق كدولة مستقلة يعتمد كليا على المحافظة على صداقة بريطانيا العظمى ، وان يقروا ان بريطانيا مستعدة لاعطائهم ما تمكنهم من اعطائه دون الاجحاف بتعهداتها ومسؤولياتها الدولية ، وانه والوزارة التي على وشك ان تشكل سيبذلون قصى الجهود لايجاد حل سلمي وعليه فان على الشعب ان يبقى صبورا وهادئا . (النهاية)

انه من المعتقد ان اي اعلان من قبل فيصل ، بينما المتطرفون في حالة جزر ، سيؤدي الى توجيه الغضب باتجاه معتدل بشرط ان يوجه الملك انتقاداته في اتجاهات اخرى غير التي كان يتصرف على اساسها .

وعلى سبيل المثال فاننا سنطالب بتبديل حاشيته وان يكون اختيار سكرتيري الملك ومساعديه في البلاط من قبل الوزارة العراقية وليس من قبله ، كما انه يجب عليه ان يقدم تعهدا خطيا بامتناعه عن التدخل في التعيينات والتفصيلات الادارية الداخلية الاخرى والتي هي ليست من واجبات الملك الدستوري ، (لم يكن هناك دستور في البلاد) كذلك فانني سأصر شخصيا بانه يجب عليه ان يخضع لمشورتي في التقاله لوزارته الجديدة»(19) .

في اليوم التالي 28 آب وصلت ثلاث برقيات من تشرشل الى المندوب السامي كوكس ، الاولى قالت بانه من الضروري انتهاز فرصة مرض فيصل لاعادة الوضع الى سابقه وذلك بتشكيل النقيب وزارة تمثل المعتدلين بشكل واضح(20) ، اما البرقية الثانية فقد ابلغ تشرشل فيها تأييده لاجراءات كوكس مع التأكيد عليه للاستفادة من فرصة مرض فيصل وذلك بتقليص دور فيصل وتأسيس النقيب وزارة اكثر قوة من السابقة(21) . لقد كانت البرقية الثالثة اهم البرقيات وكانت كما يلي:-

«لقد اطلعت اعضاء الوزارة على برقيتك المرقمة 607 والبرقيات التي تلتها ، انهم يؤيدون تماما اللغة التي اقترحتها للتحدث مع فيصل، كما انهم يؤيدون اجراءاتك التي اتخذتها ، سابرق لك مرة اخرى غدا، ان الوزارة تعلن عن ثقتها العظيمة في احكامك ومهارتك وصرامتك في معالجة الوضع الصعب ، لاتتورط في كردستان(22) . تشرشل»

كانت اهمية هذه البرقية تكمن في نقطتين ، الاولى ان الحكومة البريطانية قد وافقت وبشدة على اجراءات المندوب السامي الفورية وعلى تهديده لفيصل بالرحيل عن العراق ان هو رفض التعاون معه ، اما النقطة الثانية فهي الطلب من المندوب السامي بعدم التورط في كردستان ، عند دراستنا لموضوع الاكراد في هذه الفترة نجد انهم كانوا قد رفضوا التصريت لفيصل كملك على العراق ، وبعد تتويج فيصل فضلت السلطات البريطانية ارجاع الشيخ محمود البرزنجي الى العراق، حيث كان منفيا ، بحجة انه سيتعاون مع الحكومة العراقية للوقوف بوجه الاتراك الذين كانوا يطالبون بولاية الموصل . الا ان الشيخ محمود اعلن نفسه ملكا على كردستان وبدأ بالتعاون مع الاتراك في حين كانت قضية المعاهدة والانتداب تشغل العراق انذاك .

بعد وصول اوامر تشرشل بعدم التورط في كردستان ، وهي نقطة بحثنا ، انسحبت القوات البريطانية من المنطقة الكردية بعد ان سلم البريطانيون السلطة الى مجلس اداري محلي اصبح شقيق الشيخ محمود رئيسا له ، وبذلك اصبحت المنطقة التي تقع شرقي خط اربيل – التون كبري – كركوك – كفري ، خارج السيطرة العسكرية والادارية للحكومة العراقية ، بتعبير اخر فان لواء السليمانية ومناطق كبيرة من شبه لواء اربيل واجزاء من لواء كركوك قد خرجت عن سلطة الدولة العراقية في حين لم تكن هناك حكومة عراقية مشكلة . وبهذا اصبح بيد السلطة البريطانية سلاح جديد آخر للضغط على فيصل الا وهو العصيان الكردي في الشمال(23) . ان هذا العصيان قد شجع ودعم بواسطة انسحاب البريطانيين من الشمال بحجة ان مصير هذه المناطق لم يقرر بعد ، لقد اشار التقرير البريطاني المرفوع الى عصبة الامم بأن العرب قد استاؤوا كثيرا لتراخي البريطانيين وتماهلهم في التصدي للعصيان وولد لديهم الشعور بأن ذلك كان متعمدا .

تشرشل يهدد فيصل بالنفي وبالسماح للسعوديين بتقويض مملكة والده في الحجاز :-

في يومي 29 و 30 آب 1922 ابرق تشرشل الى المندوب السامي موضحا السياسة التي يجب اتباعها تجاه فيصل وما يجب اخباره به اذا اصر على موقفه وقد كانت البرقيتان بالشكل التالي :

«من وزير المستعمرات الى المندوب السامي في العراق
(شخصي وخاص رقم 492)

29 آب 1922 .

برقيتي البارحة ، التي اوافق تماما بان يعطى فيصل فرصة وفقا لمقترحاتك ، لكنني اميل الى ان تقوم بالضغط عليه اكثر ،اذا كان بامكانك وبدون صعوبة ابقاء فيصل بعيدا عن السلطة لاسباب صحية حتى يصلك قرار الوزارة البريطانية في الاسبوع القادم ، فانك ستبقى مطلق اليدين في التصرف كما تشاء ، انا اقترح بان الخطوة الاولى التي يجب اتخاذها هي اقناع النقيب بتشكيل وزارة معتدلة تقوم ظاهريا بالعمل الاداري

الرولبني لحين موافقة الملك بالنتيجة عليها . انني قد قررت تقديم توصية الى الوزارة البريطانية لنشر المعاهدة حالا واتخاذ الخطوات اللازمة لجمع المجلس التاسيسي ليقرر قبول المعاهدة كما هي . انه من الممكن الاعلان بان المادة 6 من المعاهدة تضمن طريقا دستوريا للتخلص من الانتداب باعتبار ان دخول العراق عصبة الامم سيلغي اوتوماتيكيا الملاقة الانتدابية . اننا ان ندعم دخول العراق عصبة الامم الا اذا وقعت المعاهدة واصبحت المادة 6 منها نافذة المفعول والدستور قائم حسب المادة الثالثة . ان القرار الحالي الذي اتخذته عصبة الامم هو انه سيمنع دخول اي قطر الى العصبة مالم تحدد حدوده السياسة . انني شخصيا لا ارى هناك سببا يمنعنا من التعهد بدعم دخول العراق عصبة الامم اذا وقعت المعاهدة والاتفاقيات التابعة لها وصدق القانون الاساسي وحددت الحدود السياسية . اذا تحقق ذلك الا يمكننا العمل مع او بدون موافقة فيصل وهو بعيد عن السلطة ؟

عند ذلك على فيصل ان يواجه خيارين اما ان يساند وزارة النقيب في كل قراراتها او ان يخلع عن العرش . انني اعتقد انه يجب ان يوضح لفيصل تماما باننا لن نسمح له ان يحطم سياستنا جميعها بعناده وان يعود ، كما يعتقد ، الى الحجاز حرا دون عقاب . اننا لم نجلبه للعراق ليلعب دورا اوتوقراطيا ولكن ليستقر كملك دستوري مقيد وصديق لنا .

ارجو ان ترسل لي وجهات نظرك لاعرضها على الوزارة . اذا قررنا اجراء الانتخابات فان وزارة النقيب ستقوم طبعا بتبليغ جميع الموظفين العرب والبريطانيين لاستعمال تاثيرهم بشكل مناسب لضمان قبول المعاهدة من قبل المجلس التاسيسي .

تشرشل »23«

اما برقية 30 آب فكانت :

«ان كل شيء متوقف على جواب فيصل . اذا اذعن واعتبر نفسه معك فان عليك ان تبرق لنا صيغة البيانات الضرورية التي ستعلن . اما اذا رفض فان هناك ايضا وقتا للتشاور معنا . وفي هذه الحالة سأكون مسرورا اذا اشرت علي بالطريقة التي توصي بها لمعالجة الامر . انني اعتقد انك ستخبر فيصل بان انقطاع علاقاته معنا سيتضمن على الارجح تغيرا كاملا في سياستنا العربية . وان تعلن له باننا في الوقت الحاضر في وضع صعب بسبب المصروفات الكبيرة التي ننفقها لتمنع ابن سعود من الهجوم على الحجاز . اننا اذا رفعنا يدنا عن هذه المناطق وهو ما سنقوم به ، فان فيصل سيسقط مرة ثانية وسيحطم عائلته ايضا (اي ملك والده في الحجاز)

تشرشل »24«

وهكذا اسقط بيد فيصل فقد اصبح شمال العراق مهددا بالضياع في حين انتهى اعوانه الوطنيون الى السجون والمعتقلات والنفي ، والاكبر من هذا كله فان مستقبل الجزيرة العربية والعراق وسوريا قد اصبح مهددا اذا عمد البريطانيون الى تنفيذ تهديدهم باطلاق ابن سعود ضدهم وهكذا وتحت كل هذه الضغوط اضافة الى وضع العراق ودولته الجديدة غير المستقرة اضطر فيصل الى الاذعان والرضوخ ، لكن رضوخه كان مؤقتا فمنذ دراستنا لحياته ومن خلال الوثائق نجد انه استمر يقف بصلابة ضد الاستعمار البريطاني حتى موته عام 1933 بل انه اراد تحويل علاقاته الى ايطاليا بدلا من بريطانيا التي لم يجد فيها اي امل لتحقيق اماني العرب في وحدتهم . بتصرف اذق فان الملك فيصل استعمل التكتيك في خدمة الهدف الاستراتيجي الذي لم يفرط به .

مصادر البحث

(1) الخبر بحث هل قبل الملك فيصل الاول ... وكان ؟ القاسيون في مجلة آفاق عربية .

(2) Secret letter, from Acting High Commissioner, to Colonial office 28th July,1921,no.S.O.1918,In: C.O. 130, 123/ 40465.

(3) Telegram from the High Commissioner for Iraq to the Secretary of State for Colonies,July 28th, 1922, no. 528, In: C.O. 730, 34/45078 and F.O. 371/7771/E9258; Later Tel. From H.C., to C.O.

(4) Tel., From H.C., to C.O., July 29th, 1922(Secret and Personal In: C.O. 730, 34/45078 and F.O. 371,7771/E9258.

(5) Tel., From Churchill, to H.C., August 3rd, 1922 Personal and Secret, In: Co. 730,34/45078 and F.O. 371,7771/E9258.

(6) Tel., From H.C., Cox, to C.O., August 10th, 1922, no. 594-Secret and Personal, In: C.O. 730,34/45078 and F.O. 371, 7771/E9258.

(7) Tel., from H.C., Cox, to C.O., August 10th, 1922, no. 595, /In: C.O. 730,34/45078 and F.O. 371, 7771/E9258.

(8) Tels, from H.C., Cox, to C.O. August 10th, 11th, 16th, 1922, nos Secret and Personal, 599, 574, In: C.O. 730,34/ 45078 and F.O. 371, 7771/E9258.

(9) Tel., from C.O., to H.C., August 16th, 1922, no. 465 Private and Personal, In: C.O. 730,34/45078 and F.O. 371, 7771/E9258.

(10) Tel., from H.C., Cox, to C.O. August 17th, 1922, no. 579, In: C.O. 730,34/45078 and F.O. 371, 7771/E9258.

(11) Tels., from Churchill, to Cox, August 19,22,1922, no. Private and Personal 179 Personal, In.,C.O. 730,34/45078 and F.O. 371,7771/E9258.

(12) Tel., from H.C., to C.O., August 23 rel, 1922, 597 In: C.O. 730, 34/42371.

(13) Tel., from H.C., to C.O., August 23rd, 1922, no. 594 In: C.O. 730,34/42371.

(14) Tel., from H.C., to C.O., August 25th, 1922, no. 597- Confidential, In: C.O. 730, 24/42741.

(15) Tels, from H.C., to C.O. August 25th,26th, 1922, nos. 598,604, In: C.O. 730,34/ 45078 and F.O. 371, 7771/E9258.

(16) Tel., from H.C., to C.O., August 26th, 1922, no. 605, In: C.O. 730, 24/42525.

(17) Tel., from Cox, to Churchill, August 24th, 1922, Secret and Personal, In: C.O. 730,24/42567.

(18) Tel., from Cox, to Churchill, August 28, 1922, no. 608, Private, In: C.O. 730, 24/43046.

(19) Tel., from H.C., to C.O., 27th, 1922, no. 607, In: C.O. 730, 24/43045.

(20) Tel., from Churchill, to Cox, August 28th, 1922, Personal, In: C.O. 730, 34/45078 and F.O. 311, 7771/E9258.

(21) Tel., from Churchill, to Cox, August 28th, 1922 Personal, In: C.O. 730, 24/43826.

(22) Tel., from Churchill, to Cox, August 28th, 1922, C.O. 730,24/ 43043.

(23) محمد بطاح الامير ، المخطر التاسيسي العراقي ، عدد 1979 ص 300-293.

(23) Tel., from Churchill, to Cox, August 29th, 1922, no. 468, Private and Personal, In: C.O. 730, 24/43045.

(24) Tel., from Churchill, to Cox, August 30th, 1922, Personal and Secret, In: C.O. 730, 34/45078 and F.O. 371,7771/E9258.